

الوفود والسفارات

في الجاهلية وعصر الرسول (ص)

د. نبيه عاقل

آ - الوفود والسفارات قبل الاسلام :

يقول ابن منظور في « لسان العرب » في باب « سفر » ما نصه : « . . سَفَرْتُ بين القوم أَسْفِرُ سفارة أي كشفت ما في قلب هذا وقلب هذا لاصلح بينهم . . . والسفير : الرسول والمصلح بين القوم ، والجمع سفراء ، وقد سَفَرَ بينهم يُسَفِّرُ سَفْراً وسِفارة وسَفارة : اصلح .

وفي حديث علي أنه قال لعثمان : ان الناس قد استسفروني بينك وبينهم أي جعلوني سفيراً ، وهو الرسول المصلح بين القوم . يقال : سفرت بين القوم اذا سعت بينهم في الاصلاح .» .

وعندنا ان هذا التعريف « للسفارة » الذي ينطوي على السعي بالصلح بين فريقين متخاصمين ينطبق بشكل امثل على ما كان يحدث قبل الاسلام من قيام بعض الرجال من ذوي الجاه والمكانة في قومهم بالمسير بين قبيلتين أو جماعتين استشرت الخصومة بينهما ووقعت بينهما الدماء ، فقام بعض ذوي الحكمة والتعقل وسعوا لوضع حد لهذا الحال المفجع ولحقن الدماء . . . ويبدو أن نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس الميلاديين في الجزيرة العربية كانت فترة اتسمت بالصراع الدموي بين القبائل بسبب عوامل عديدة قد يكون من بينها شح الارض بالقوت والماء والكلأ ، فلا يجدون الا الغارة على جيرانهم وسيلة للقيام بأودهم وأود اولادهم ، وادى ذلك الى كثرة الحروب ، وما تستتبعه هذه الحروب من ثارات ، وما يترتب على الثارات من معارك جديدة . هذا فضلا عن التنافس على السيادة والزعامة والجاه الذي جر الى الكثير من الحروب وأزيت في سبيله الدماء الغزيرة . ولا أظن ان حديث داحس والقبراء بين عيس وذبيان سوى مظهر من مظاهر هذا التنافس والصلف الجاهلي المقيت الذي أدى الى ازهاق العديد من الارواح البريئة ، فعبس وذبيان ، كما هو معلوم ، اولاد عم ينتمون الى غطفان ويعيشون متجاورين ، وتربطهم روابط الود والاخاء ، وقد ظل حالهم كذلك حتى اشتعلت الحرب بينهم بسبب المراهنة بين سيد عبس ، قيس بن زهير ، وسيد فزارة من ذبيان . حذيفة بن بدر ، اثناء سباق

بين فرس الاول المسمى داحس ، وحجر الثاني المسمى الغبراء . فقد نصب جماعة حذيفة كميناً ليردوا داحساً عن الغاية فتسبق الغبراء . وحين تم الذي خطط له حذيفة وطالب بالرهان البالغ مائة ناقة ، رفض قيس وأصر أن فرسه كان السابق فنشبت الحرب التي عرفت باسم حرب داحس والغبراء أو حرب السباق التي استمرت أربعين سنة واستقطبت تحالفات قبلية جديدة ، وكان من أبطالها الفارس المشهور عنتر بن شداد ، وقد دفعت ويلات هذه الحرب سيدين من ذوي الشهامة والمروءة للتوسط بالصلح بين عبس وذبيان ، وهما هرم بن سنان والحرث بن عوف اللذان خصهما الشاعر زهير بن أبي سلمى بمعلقته الشهيرة ، التي يقول في مطلعها:

امن ام اوفى دمنة لم تكلم

بحومانة الدراج فالتلثم

وفيهما مديح للسيدتين الذين سعيًا بالصلح . . وموعظة للكف عن الأحقاد وسفك الدماء .

ان ما قام به هرم بن سنان والحرث بن عوف هو ما ينطبق عليه تعريف « السفارة » الذي نقلناه عن ابن منظور في مطلع هذا البحث . على أن الذي نقصد معالجته في هذه الدراسة هو غير ذلك ، ويهدف الى التعريف بالسفارة بمعناها الدبلوماسي الحديث ، أي البعثة ذات الصفة الرسمية التي تقوم سلطة مسؤولة بإيفادها لاداء مهمة معينة في دولة أخرى . وإذا صح هذا التعريف على الفترة التي تبدأ منذ أن أقام الرسول الكريم صلوات الله عليه الحكومة الإسلامية الاولى في المدينة المنورة وحتى عصرنا الحاضر . فان فترة ما قبل الاسلام حين كان مجتمع الجزيرة العربية يعيش حياة البداوة عرفت هذا النوع من المهمة . ولكن تحت اسم آخر هو « الوفود » .

ولا بد لفهم قضية « الوفود » التي كانت جزءاً من الصلات بين الجماعات القبلية قبل الإسلام أن نذكر أن الضرورات التي دعت الى قيام هذه الصلات تنبع من واقع الجزيرة العربية السياسي في تاريخها السابق لظهور الرسول الكريم . حين كانت السلطة السياسية مفقودة ولا تقوم على أرضها حكومات مسؤولة تجمع شتات هذه القبائل وتوحد حركتها وتوجهها الوجهة السليمة التي تخدم الصالح العام . فكان لابد أن تقوم أعراف وتنظيمات تنبع من واقع الجزيرة ويكون هدفها تنظيم الصلات بين الجماعات القبلية المختلفة . ويمكن حصر الصلات التي قامت بين القبائل في الجزيرة العربية قبل الإسلام في أربع زمر هي : الحلف ، والمساندة ، والموادعة والوفود . وتتشابه عمليات التحالف والمساندة من حيث أنها عقد وتحالف بين

جماعات قبلية مختلفة لأجل محدود أو غير محدود ، لتنفيذ عملية واحدة أو عدة عمليات في ميدان الحرب أو غيره من ميادين العلاقات العامة التي تنتظم حياة الناس في الجزيرة العربية قبل الإسلام ، أما المودعة فهي معاهدة سلم تفرض على الأطراف الداخلة فيها عدم القيام بأي اعتداء على بعضها أو الإخلال بالعهد الذي قطعته على نفسها باحترام القبائل الداخلة في عقد المودعة معها . وعلى المتوادعين أن يكفوا عن التفاخر والتفني بأمجادهم ، كما عليهم أن يمتنعوا عن القتال . فالتحالف والمساندة والمودعة اذن ، تتصل ، بشكل أو بآخر ، بما ينشأ بين القبائل من قتال أو سلم بعد هذا القتال ، وهي بهذا تختلف عن « الوفود » وهي المظهر الرابع للصلات بين الجماعات القبلية قبل الإسلام .

إن عادة إرسال الوفود عادة عربية قديمة ، وتتلخص في أن ترسل قبيلة وفودها الى قبيلة اخرى حين يحدث حادث أو يحل أمر جليل . وكمثال على المناسبات التي توفد فيها القبيلة الوفود الى قبيلة اخرى يمكننا أن نذكر ان انتصار قبيلة نصرأ مؤزراً على غيرها هو من المناسبات التي تفتنمها القبائل الاخرى لترسل إليها وفودها مهنئة ومطئبة بفعالها وما تم على يديها .

فمن هذا القبيل مثلاً ، ارسال قريش وفداً الى اليمن لتهنئة سيف بن ذي يزن حين حقق نصره على الأحباش . فقد ساء بعض أهل اليمن ، كما هو معلوم ، احتلال الأحباش لارضهم ، فاستجدوا بالدولة الساسانية التي كان بينها وبين الامبراطورية البيزنطية عداً شديداً . فانجدهم كسرى انو شروان بقوة ابحرت من الخليج العربي ونزلت جنوب اليمن واستطاعت أن تطرد الأحباش منها . وبذلك تحررت اليمن من حكم الأحباش وعين سيف بن ذي يزن حاكماً عليها . لقد اعتبرت قريش ان هذا النصر من الأمور العظيمة التي تستوجب التهنئة فأوفدت رجالها للقيام بهذه المهمة ، وتعتبر هذه البعثة القرشية من أهم السفارات التي أوفدها قريش في فترة ازدهارها الاقتصادي ورفعة مكانتها الدولية التي نجمت عن هذا الازدهار . فقد كان من المهم بالنسبة للمكيين الذين تحتل التجارة مكانة بارزة في حياتهم العامة ان تقوم بينهم وبين السلطة السياسية في اليمن ، الموقع الرئيس على طريق التجارة الدولية آنذاك ، أطيب الصلات حتى يضمنوا استمرار مسير قوافلهم . ولا بد بمناسبة كبرى كمنااسبة زوال الحكم الحبشي الذي هدد مقدساتهم الدينية حين حاول ابرهة ضرب الكعبة واحتلال مكة ، وسعى ما وسعه السعي لاكساد تجارتهم واهلاك أموالهم عن طريق استلاب السيطرة على الطريق التجارية منهم . نقول ، لا بد بمناسبة كبرى كهذه من ان يوفدوا وفودهم مهنئين بخلاص اليمن من الحكم الحبشي .

وكان استقبال الوفود من واجبات رئيس القبيلة ، وعليه ان يستمع الى خطابه

هذه الوفود وشعرائها وان يرد عليها بالشكر والصلات . وفي المصادر أخبار كثيرة عن الوفود التي كانت تقصد بلاط الملوك اللخمين في الحيرة وبلاط الفساسنة في الشام، وعن الصلات والهدايا والاموال التي كانوا يعودون بها ، بعد ان تكرم وفادتهم وتستجاب المطالب التي وفدوا من أجلها . وكان قدوم الوفود على سيد أو ملك دليلاً على مكانته البارزة ورتبته الرفيعة . يقول الطبري في الحديث عن عمرو بن عدي ، الملك الحيري الشهير ، أنه كان « منفرداً بملكه ، مستبداً بأمره ، يغزو المغازي ، ويصيب الغنائم ، وتفد عليه الوفود دهره الاطول » . وكما كانت القبيلة توفد وفودها الى القبائل الاخرى وبلاطات الملوك العرب، فقد كانت الممالك العربية قبل الاسلام توفد وفودها الى الدول الاجنبية حين تقتضي الضرورة ذلك .

ومن هذا النوع من السفارات السفارة التي أوفدها الملك الحيري عمرو بن هند (٥٥٤ - ٥٧٤ م) الى الامبراطور البيزنطي جوستين الثاني ، اذ تذكر المصادر أثناء بحثها للعلاقات بين مملكة المناذرة ومملكة الفساسنة زمن عمرو بن هند الحيري والحارث بن جبلة الفساني ان أشهر غزوات عمرو ضد عرب الشام الفساسنة كانت سنة ٥٦٣ م . وتتلخص الاسباب التي دعت الى القيام بهذه الغزوة بأنه في الصلح الذي عقد بين الفرس والروم البيزنطيين سنة ٥٦٢ اشترط الفرس على الروم أن يدفعوا لعرب العراق جزية سنوية مقابل سكوتهم عن مهاجمة عرب الشام الخاضعين للبيزنطيين . ولكن الروم رفضوا أن يدفعوا ما اتفقوا عليه ، فطلب عمرو من الفرس ان يساعده في غزو الشام ، ولكنهم تمهلوا وتباطأوا في الرد عليه ، فما كان منه إلا أن هاجم الفساسنة ، واعادة الكرة سنة ٥٦٦ و ٥٦٧ . وكان قائد جيوشه في هاتين الفارتين الاخيرتين اخوه قابوس . والسبب الذي يقدمه المؤرخون لغزوتي ٥٦٦ و ٥٦٧ هو ان عمرا ارسل رسولا الى الامبراطور البيزنطي جوستين الثاني لمفاوضته على دفع الاتاة السنوية ، ولكن الامبراطور البيزنطي عاملهما معاملة سيئة ، فقام قابوس بهاتين الغزوتين بناء على امر أخيه ، انتقاماً لشرف المبعوثين الحيريين . وهكذا فقد كانت الدولة تحرض على كرامة مبعوثيها ولا تتردد في شن الحروب وسفك الدماء لرد اعتبارهم ، لأنهم يمثلون الدولة التي أوفدتهم واهانتهم اهانة لها .

ويمكن اعتبار سفر امرئ القيس بن حجر بن الحارث الى القسطنطينية أثناء سعيه الحثيث للاخذ بثأر أبيه حجر من بني أسد ، من السفارات الخارجية التي تمت بين الممالك العربية قبل الاسلام والدول الاجنبية ، وذلك لانها تمت بعد وساطة السموال بن عادياء عند الحارث بن أبي شمر الفساني ليكون وسيلة امرئ القيس الى الامبراطور البيزنطي جستنيان . وقام الحارث بمراسلات مع الامبراطور جستنيان انتهت بقرار امرئ القيس أن يسافر الى القسطنطينية حيث استقبل كمندوب عن الحارث بن أبي شمر ، وانزل في قصر من قصور الامبراطور وعومل كما

يعامل المبعوثون الرسميون ، وقرر الامبراطور ان يرسل معه جيشا ينصره على بني أسد . ولكن حدث ما عكس صفو العلاقات بينه وبين جستنيان حين نمي الى هذا الاخير أن علاقة حب قامت بين امرئ القيس وابنته ، وان امرا القيس يأتيها وتأتيه . فامتلات نفسه غيظا وعزم على الانتقام منه ، فبعث اليه بحلة وشي منسوجة بالذهب ولكنها مسمومة فلما لبسها اسرع السم في جسمه وسقط جلده ، فسمي بذئ القروح ، ولما وصل الى أنقرة من بلاد الروم وهو في طريق عودته الى بلاده مات متأثرا بقروحه ودفن هناك . وقد اعتبر الحارث الفساني نفسه ولي امرئ القيس وله الحق في ارثه وطالب السموال بما كان أودعه امرؤ القيس عنده من دروع . فأبى السموال تسليم ما بعهدته ودفع ثمن وفائه حياة ابنه فضرب بذلك المثل .

والى جانب هذا النوع من السفارات التي كانت تقوم بين الممالك العربية قبل الاسلام والدول الاجنبية ، كانت هناك وفود وسفارات تبعث بها قريش الى القبائل والممالك العربية داخل حدود الجزيرة ، والى الدولتين العظميين ، فارس وبيزنطة ، وذلك لامور تتعلق بتجارتهما ، أو لعقد الايلافات والمعاهدات مع هذه القبائل أو الممالك لاغراض مماثلة وتذكر الروايات العربية أنه كانت لأولاد عبد مناف الأربعة علاقات تجارية مع مراكز التجارة الدولية آنذاك وكانوا موفدي قبيلتهم الى بعض هذه المراكز لعقد ايلافات وتحالفات بقصد تنظيم العمليات التجارية بين مكة وهذه البلدان من جهة ، ولضمان ابعاد اية منافسة للسيادة أو الاحتكار المكي للتجارة مع هذه البلدان من جهة ثانية ، فقد توجه عبد شمس الى الحبشة موفدا من قومه لعقد معاهدة تجارية مع الاحباش . واستطاع عبد شمس أن يحقق الهدف من بعثته وأن يقيم علاقات ود وصداقة مع هذه الدولة . وقام هاشم ببعثة مماثلة الى سورية وحققت بعثته لقومه نفس النتائج ، وكذلك فعل عبد المطلب مع اليمن ونوفل مع العراق ، وعادا بعد أن كلت مهمتهما بالنجاح .

ان المتفحص لهذه البعثات والوفود يجد أنها تمثل ما يمكن وصفه بالصلات الخارجية العربية والدولية بالنسبة للقبائل والدول العربية قبل الاسلام . وكانت على ما يتضح من الأمثلة القليلة التي قدمناها مظهرا من مظاهر سيادة القبيلة واثباتها لوجودها في المحيطين : المحلي والدولي . كما يمكن اعتبارها في كثير من الاحيان ضرورة لا بد منها لاستمرار وجودها السياسي والاقتصادي ، أو لتثبيت سيادتها وضمان عدم الاعتداء عليها .

ويعتبر المبعوث ممثل قبيلته أو دولته ويتمتع بحرمة ورعاية من أو فد إليهم ، ويعتبر إكرامه وحسن وفادته اكراماً للجهة التي أو فده كما أن اهانتة أو المس بكرامته مسا بكرامتها يقتضي منها الثأر لما لحق بها من عار . ويحدثنا المسعودي في كتابه

«مروج الذهب» عن قدوم عبد المطلب بن هاشم مع وفد من قومه على معديكرب بن سيف ابن ذي يزن مهنئاً بالملك ويقول: «واتت معديكرب الوفود من العرب تهنيه بعود الملك اليه واشراف العرب وزعمائها ، وفيهم عبد المطلب بن هاشم بن عبد شمس بن عبد مناف ، وخويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي ، وأبو زمعة جد أمية بن أبي الصلت الثقفي فدخلوا اليه وهو في أعلى قصره بمدينة صنعاء المعروف بقمدان ، وهو مضجع بالعنبر ، وسواد المسك يلوح على مفرقه ، وسيفه بين يديه ، وعلى يمينه ويساره الملوك وأبناء الملوك وأبناء المقاول . فتكلمت الخطباء ، ونطقت الزعماء ، وقد تقدمهم عبد المطلب ابن هاشم ، فقال عبد المطلب : ان الله جل جلاله قد أحلك ، أيها الملك ، محلاً رفيعاً ، صعباً منيعاً ، شامخاً باذخاً .. ، فانت ، أبيت اللعن ، رأس العرب وربيعها الذي تخضب به ، وانت أيها الملك ، ذروة العرب الذي له تقاد .. ، أيها الملك ، نحن أهل حرم الله وسدنة بيته ، أشخصنا إليك الذي أبهجنا من كشف الكرب الذي فدحنا ، ونحن وفد التهئة لا وفد المرزئة . فقال له الملك : وأيهم أنت أيها المتكلم ؟ قال : أنا عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف فقال الملك معديكرب بن سيف : ابن اختنا ؟ قال : نعم . قال : ادنوه مني ، فادني ، ثم أقبل عليه وعلى الوفد ، فقال لهم : مرحباً وأهلاً ، وناقة ورحلاً ، ومستنخاً سهلاً ، يعطي عطاء جزلاً ، قد سمع الملك مقاتلكم وعرف قرايتكم ، وقبل وسيلتكم ، فأنتم أهل الليل والنهار ، لكم الكرامة ما اقمتم ، والحباء إذا ظعنتم » . ولما انتهت مراسيم الاستقبال والضيافة ، وحان موعد انصرافهم اعطاهم العطايا وحملهم ما يليق من هدايا ومتاع . ومعديكرب في هذا ، لا يكرم اشخاصهم فحسب ، بل يكرم الجهة التي جاؤوا يمثلونها . وبالمقابل ، فان اهانة الوفد اهانة للجهة الموفدة وتقتضي الثأر لرد الاعتبار . وكان لبعض ملوك الفرس ترجمة من العرب يكونون الى جانبهم أثناء استقبالهم الوفود العربية التي تأتي الى بلاطاتهم . فمن المعروف مثلاً أن عدي بن زيد العبادي كان ترجمان كسرى أبرويز يترجم له اذا وفد عليه زعماء العرب ، فلما قتل عدي على يد النعمان بن المنذر خلفه في هذا المنصب في بلاط أبرويز زيد بن عدي ، الامر الذي يؤخذ منه اهتمام الاكاسرة بهذه الوفود وتهيئة الاختصاصيين لاستقبالها واقامة الحوار معها .

ولعل أهم هذه الوفود وأكثرها خطراً كانت تلك التي تقوم بمفاوضات لعقد الايلانات أو المعاهدات التجارية مع الدول الاجنبية ، ويسمى ابن حبيب السكيري ، صاحب « المحبر » رجالات هذه الوفود بـ « أصحاب الايلاف » ويقول عنهم : « من قريش الذين رفع الله بهم قريشاً ونعش فقراءها » . وهم : هاشم ، وعبد شمس والمطلب ونوفل ، بنو عبد مناف . وكان متجر هاشم الى الشام ، ومتجر عبد شمس الى الحبشة ، ومتجر المطلب الى اليمن ، ومتجر نوفل الى العراق .

وفي الحديث عن الاسلوب الذي اتبعه هاشم حتى توصل لعقد الايلاف مع

قيصر ، يذكر اليعقوبي ان تجارة قريش كانت لا تعدو مكة ، فكانوا في ضيق « حتى ركب هاشم الى الشام ، فنزل بقيصر ، فكان يذبح كل يوم شاة ، ويضع جفنة بين يديه ، ويدعو من حواليه . وكان من أحسن الناس وأجملهم ، فذكر لقيصر ، فأرسل اليه ، فلما رآه وسمع كلامه ، أعجبه وجعل يرسل اليه ، فقال هاشم : أيها الملك ، ان لي قوماً ، وهم تجار العرب ، فتكتب لهم كتاباً يؤمنهم ويؤمن تجارتهم حتى يأتوا بما يستطرف من ادم الحجاز وثيابه ، ففعل قيصر ذلك ، وانصرف هاشم ، فجعل كلما مر بحي من العرب أخذ من أشرافهم الايلاف بأن يأمّنوا عندهم وفي أرضهم ، فأخذوا الايلاف من مكة والشام » . وفي هذا الحديث ما يفصح عن الاسلوب اللبق الذي استخدمه هاشم لجلب اليه انظار قيصر حتى استدعاه اليه ، فحدثه بالمهمة التي جاء من أجلها وما يهدف اليه من قدومه الى بلاد الشام ، فتكللت مساعيه بالنجاح وعاد الى بلده بعد أن منحه قيصر ما أراد من عهد ، ولم يكتف بذلك بل التفت الى تنظيم علاقات قوافل قومه بالقبائل التي تنزل الطريق بين مكة والشام فعقد معها الايلاف ليضمن الامن للقوافل المكية في حلها وترحالها ، وهو ليس بالامر السهل اليسير . وقد كان ما أنجزه هاشم في سفارته هذه من الأهمية لقومه لدرجة أنه حين مات « جزعت قريش وخافت أن تغلبها العرب » فهب عبد شمس الى نجاشي الحبشة ليجدد العهد بينه وبينه ، وخرج نوفل الى العراق ليأخذ عهداً من كسرى ، حتى تحكم قريش الطوق وتضمن السلامة والأمن لقوافلها في جميع الأسواق المجاورة . وفي هذا المثل ما يكفي لايضاح الأهمية التي كانت توليها القبائل لهذا النوع من السفارات في أمور معاشها ودينها ، الأمر الذي يعتمد اعتماداً رئيسياً على براعة المسؤول عن السفارة وحنكته ومعرفته بسياسة الأمور .

وطبيعي أن تكون هذه الوفود والسفارات منسجمة وواقع المجتمع العربي قبل الاسلام وحاجاته وأعرافه وتقاليده والغايات التي ترجى منها ، وطبيعي أيضاً أن تتغير هذه الصورة بعد قيام الاسلام حين تغيرت أهداف المجتمع وطبيعته والمثل التي تنتظم حياة الناس الذين يعيشون في ظله .

ب - الوفود والسفارات في عصر الرسول (ص) :

معلوم أنه حين تنزل الاسلام على قلب الرسول الكريم (ص) ، فشا ذكره بمكة وتحدث عنه الناس ، وأخذ بعضهم يدخل فيه ، وبعد أن مضى على مبعث محمد صلوات الله عليه ثلاث سنين أمر الله عز وجل نبيه أن يصدع بما جاءه منه وأن يدعو الناس بدعوة الإسلام . وكان الرسول قبل ذلك ، أي خلال السنوات الثلاث الأولى من مبعثه ، يدعو الى الله في السر ، وقد جاءه الأمر بعلنية الدعوة في الآية الكريمة « فاصدع بما تؤمر ، وأعرض عن المشركين » ، وفي قوله تعالى : « وأنذر عشيرتك الاقربين .. » .

فما كان من الرسول الكريم إلا أن نقل دعوته من مرحلة السر الى مرحلة العلن . وكانت القلة التي آمنت بالرسول في الفترة السرية تمارس شعائرها الدينية في الخفاء وبمئأى عن أعين قريش . ويذكر المؤرخون أن قريشاً لم تعلن العداء الجدي لمحمد في بداية مرحلة الدعوة العلنية ، وانها لم تفعل ذلك إلا حين عاب آلهتها وذكرها بسوء ، فحينئذ وقفت قريش ضده وأعلنت عليه الحرب العلوان في كل مجال . ويشرح لنا عروة ابن الزبير هذا الأمر في رسالة يقال انه بعث بها الى عبد الملك بن مروان ردأ على رسالة من عبد الملك يستفسر منه عن قضايا تتعلق بفترة صدر الإسلام . ومما قاله عروة في هذه الرسالة التي ينقلها لنا الطبري : « أما بعد ، فانه » يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم « لما دعا قومه لما بعثه الله من الهدى والنور الذي أنزل عليه ، لم يبعدوا منه اول ما دعاهم ، وكادوا يسمعون له ، حتى ذكر طواغيتهم . وقدم ناس من الطائف من قريش لهم أموال أنكروا ذلك عليه ، واشتدوا عليه ، وكرهوا ما قال لهم ، وأغروا به من اطاعهم ، فانصفق عنه عامة الناس ، فتركوه إلا من حفظ الله منهم ، وهم قليل » . ولسنا هنا في مجال مناقشة أسباب ودوافع المعارضة القرشية للرسول الكريم (ص) ، كما أننا لا نوي استقصاء المظاهر المادية والمعنوية الفظيعة لهذه المعارضة ، لانها ليست مجال بحثنا ، ولكننا نود القول أن هذه الحال اقتضت من الرسول تحركاً على الصعيدين الداخلي والخارجي للدفاع عن الدعوة من جهة ، وللإبقاء على عزيمة من أسلم والحفاظ على حياته ولاكتساب أنصار جدد لصفوف الدعوة من جهة أخرى . وكل هذا يوصلنا الى موضوع الوفود والسفارات في عهد الرسول الكريم .

طبعي أن تكون محاولات الرسول (ص) الاولى لرد هذه الهجمة التي تعرض لها من قومه منصبة على تقوية صفه الداخلي واستنفار القوى المؤيدة له لتقف الى جانبه في هذه المحنة . وقد استغل الرسول هذا الجانب أحسن استغلال ففشلت محاولات القرشيين في شق الصف الهاشمي ، وعادوا من زيارتهم لعمه أبي طالب التي أرادوا من ورائها أن يسلبوه ما كان يمنحه عمه اياه من دعم وتأيد ، بخيبة أمل كبيرة . كما فشل أسلوبهم في المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية التي فرضوها على بني هاشم ، وانتهى الامر بشق صحيفة المقاطعة وعودة بني هاشم الى دورهم ، بعد أن كلفتهم المقاطعة ثمناً غالياً كان أفدحه وفاة أبي طالب عم النبي ، وخديجة بنت خويلد زوجته وسنده القوي .

وتذكر المصادر أنه حين اشتد أذى قريش على المسلمين وخاف الرسول أن يؤدي هذا الى فتنهم عن دينهم ، وهو لا يقدر أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء ، قال لهم : « لو خرجتم الى أرض الحبشة فان بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم مخرجاً مما أنتم فيه » . وقد استجاب لنصيحة الرسول الكريم

هذه بعض المسلمين ، فخرجوا متسللين سرا حتى انتهوا الى الشعبة (ميناء مكة) حيث ركبوا سفنا لبعض التجار حملتهم الى أرض الحبشة مقابل نصف دينار عن كل شخص .

وكانت هذه الهجرة في شهر رجب من السنة الخامسة لمبعث الرسول . ولما علمت قريش بأمر الهجرة ورات أنهم آمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة ، وانهم قد أصابوا بها دارا وقرارا ائتمروا بينهم أن يبعثوا الى النجاشي رجلين منهم جلدین ، ليرد من قبله من المسلمين . فبعثوا عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص ليقوما بهذه المهمة . وهذه السفارة هي أول سفارة عربية في الفترة التالية لنزول الاسلام على قلب الرسول الكريم . ويورد ابن هشام في سيرته وصفا دقيقا لأخبار هذه السفارة تقدمه فيما يلي : « قال ابن اسحق : حدثني محمد بن مسلم الزهري . . عن أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشي ، أمنا على ديننا ، وعبدنا الله تعالى لا تؤذى ولا نسمع شيئا نكرهه ، فلما بلغ ذلك قريشا ائتمروا أن يبعثوا الى النجاشي فينا رجلين منهم جلدین ، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة ، وكان من أعجب ما يأتيه الادم . فجمعوا له أدما كثيرا ، ولم يتركوا من بطارقه بطريقا الا أهدوا له هدية ، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص ، وأمروهما بأمرهم ، وقالوا لهما : ادفعا الى كل بطريق هديته قبل أن تكلم النجاشي فيهم ، ثم قدما الى النجاشي هداياه ، ثم أسألاه أن يسلمهم اليكما قبل أن يكلمهم . قالت : فخرجا حتى قدما على النجاشي . . فلم يبق من بطارقه بطريق إلا دفعا اليه هديته قبل أن يكلم النجاشي ، وقالوا لكل بطريق منهم : أنه قد ضوى الى بلد الملك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينكم وجأوا بدين مبتدع ، لا نعرفه لا نحن ولا انتم ، وقد بعثنا الى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم اليهم ، فاذا كلمنا الملك فيهم ، فأشيروا عليه بأن يسلمهم الينا . . » . وبعد أن أحكم الوفد القرشي المؤامرة مع البطارقة وكبار رجالات الدولة الحبشية ، قابل النجاشي وسلمه الهدايا وحدثه بحديث المسلمين اللاجئين اليه وطلب تسليمهم لاعادتهم الى قومهم . وكان رد النجاشي انه غير مستعد لتسليم أناس لجأوا اليه دون أن يسمع دفاعهم عن أنفسهم . وبعد حوار شرح فيه المسلمون اللاجئين الى النجاشي حالهم قبل نزول الاسلام على قلب الرسول الكريم وما آل اليه مجتمعهم نتيجة الفوضى والجهالة والظلم الاجتماعي الذي كان يحيق بالمحرومين بسبب استغلال المستغلين وتسلط طبقة كبار التجار وتفشي الربا والاقراض بالفوائد الفاحشة وما شابه . هذا فضلا عن عبادتهم للأوثان وتوقعهم الى معرفة الله خالق الكون وفاطر السموات والأرض . كما بينوا له الانقلاب الذي أحدثه الاسلام في حياتهم بسيرة صاحبه وبالمبادئ التي دعا اليها وبالمثل التي

حث اتباعه على السير على هديها . ولما انتهوا من شرحهم هذا بكى النجاشي حتى اخضلت لحيته وبكت اساقفته ، وقال لهم النجاشي : « ان هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة » . والتفت الى المبعوثين القرشيين وقال لهما : « انطلقا ، فلا والله لا اسلمهم اليكما » .

فشلت سفارة قريش هذه كما رأينا ، وعاد المبعوثان الى قومهما دون ان يحققا الهدف الذي بعثهما قومهما من أجله . وانتقل العمل الدبلوماسي بين الفريقين : القرشي والمسلم ، الى مرحلة جديدة ، هي مرحلة اكتساب الأنصار في الداخل . ومن أجل هذا كانت رحلة الرسول الكريم الى الطائف ، وحديثها معروف ، كما كان أمر « المقتسمين » الذي يمكن أن يدخل ضمن دراستنا هذه عن الوفود والسفارات .

وحديث « المقتسمين » ، كما يتضح مما يرد في القرآن الكريم يستفاد منه انه كانت هناك فئة من معارضي الرسول صلوات الله عليه تدعى « المقتسمون » ، ورد ذكرها في قوله تعالى مخاطبا رسوله : « وقل اني انا النذير المبين » ، كما أنزلنا على المقتسمين ، الذين جعلوا القرآن عضين ، فوركك لسائلهم أجمعين » . وتذكر كتب التفسير أن « المقتسمين » هم الذين اقتسموا طرق مكة فكانوا يقفون فيها يصدون الناس عن الاسلام ، وقال بعضهم : في القرآن سحر ، وقال آخرون : فيه كهانة ، وقال بعضهم : انه من عمل شاعر . اما ابن حبيب في كتابه « المحبر » ، فيذكر انهم كانوا « سبعة عشر رجلا من قريش ، اقتسموا أعقاب مكة ، فكانوا اذا حضروا الموسم يصدون الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفيهم نزلت : « كما أنزلنا على المقتسمين » . ويقول ابن حبيب ان الرسول حين علم بأمر المقتسمين أخذ يرسل شخصا من أصحابه يقف الى جانب الشخص الكافر الذي يصد الناس عن الدعوة الى الاسلام ، فاذا أخذ المشترك يشتم الاسلام ورسوله ويقول عليه الكذب ، ينبري الشخص المسلم للدفاع وتفنيد أكاذيب المشرك وبيان فضائل الاسلام وجهالة الشرك وعبادة الأوثان .

ان هذه العملية هي نوع من السفارة الاسلامية الى القبائل القادمة الى مكة لاداء فريضة الحج ، للوقوف في وجه سفارة قرشية الى هذه القبائل تحاول صدها عن الاسلام بتشويهه والتقول غليل والاقلال من قدر نبیه والاقتراء على المبادئ السامية التي يدعو اليها . وكانت عملية « المقتسمين » ردا قرشيا على مبادرة الرسول الكريم بعد عودته من الطائف بالاتصال بأفراد القبائل المختلفة التي تزور مكة أثناء موسم الحج وعرض دعوته عليها . ويذكر ابن اسحق أن أبا لهب كان يتبع الرسول في جولاته هذه ، فما يكاد يفرغ من شرح أصول الاسلام ويبين أهم تعاليمه ، حتى يقف أبو لهب فيقول للناس : « يا بني فلان ، ان هذا انما يدعوكم أن تسلكوا اللات والعزى من اعناقكم ، .. الى ما جاء به من البدعة والضلالة ، فلا تطيعوه ، ولا تسمعوا منه » .

ان عملية ارسال الوفود الى القبائل من جانب قريش اثناء موسم الحج ، والوفود الاسلامية المضادة الى هذه القبائل ، تمثل جانبا من المهام الجسام التي كانت تلقى على كاهل الوفود ، كما تمثل اعتماد القبائل للوفود كممثلين عنها في شرح وجهات نظرها فيما يعرض لها من امور . ولعل اهم مجال ظهرت فيه أهمية الوفود في هذه الفترة هو المفاوضات التي أجراها الرسول الكريم مع وفد من أهل يثرب وأدت الى أكبر حدث في تاريخ الاسلام ، ألا وهو الهجرة الى المدينة التي كانت نقطة التحول الأساسية في تاريخ الدعوة الجديدة . وليس المهم في هذا البحث أن ندخل في تفاصيل المفاوضات بين الوفود اليثربية والوفد الاسلامي برئاسة الرسول الكريم في بيعتي العقبة الاولى والثانية والتي انتهت بالاتفاق على عقد البيعة وشروطها ، ولكن لا بد من الإشارة الى أن أسلوب التفاوض عن طريق الوفود كان السبيل التي اعتمدها صلوات الله عليه في مسيرته من أجل تحقيق هدفه في اقامة دولة الاسلام واستقطاب العرب حوله . ويبدو لنا اعتماده هذا الأسلوب بشكل واضح بعد غزوة أحد ، اذ ظهر فشل المشركين جليا في تحقيق نصر حاسم على الرسول والاسلام بشكل عام ، ووجد أبو سفيان وصحبه أنفسهم في وضع حرج ما لم يقوموا بعمل حاسم ضد محمد (ص)، وانهم هالكون لا محالة . واعتمدت خطتهم الجديدة في محاربة الرسول على تأليب القبائل عليه بعد أن جمعوا من مكة كل قادر على حمل السلاح ، دون أن يوصلهم ذلك الى تحقيق نصر حاسم على المسلمين . فسارت وفودهم الى القبائل البدوية الكبيرة الضاربة في شرقي وشمال شرقي المدينة ليقنعوها بضعف محمد (ص) وصحبه ، ووعدها بالفنائم الكبيرة التي ستحصل عليها اذا ما ساهمت في العمليات العسكرية ضده . وقد توجهت الوفود القرشية هذه الى قبائل سليم وغطفان وبنو ضمره وغيرهم من أجل هذا الهدف . وكان الرسول بالمقابل يتابع تحركات هذه الوفود ومقاصدها وأساليبها . وكانت سياسته بعد أحد وخلال السنتين التاليتين لهذه المعركة تهدف لمنع أي تحركات عدائية توجه ضد المدينة ، وذلك عن طريق بث العيون والأرصاد حول عاصمته لإخباره بكل التحركات الدعائية المكية لمواجهتها بتحركات مضادة ، من جهة أخرى . وكان الرسول أيضا يستقبل وفود القبائل التي أخذ ذكره يفشو بينها فتود أن تتعرف عليه وعلى دعوته عن قرب ، ويقوم هو بالمقابل بارسال الوفود اليها ليسمعها كلمة الاسلام . ومن هذا القبيل كان استقباله لعامر بن مالك بن جعفر أبي البراء الملقب بملاعب الاسنة ، أحد سادة بني عامر . وحديث هذه الزيارة والوفد الذي أرسله الرسول الى العامريين كما يرويه لنا ابن سعد في « طبقاته » ، والواقدي في « مغازيه » ، وابن هشام في « سيرته » ، يتلخص في أنه في صفر على رأس ستة وثلاثين شهرا من هجرة الرسول الى المدينة قدم على محمد (ص) ، عامر بن مالك هذا ، وأهداه فرسين وراحتين فرفض الرسول (ص) قبول هذه الهدية ، وقال له : لا أقبل هدية مشرك . وعرض عليه الاسلام ، فرفض بسبب مركزه في قومه ، ولكنه أظهر ودا

وعطفاً على الإسلام ، وقال للرسول : يا محمد ، اني أرى أمرك هذا أمراً حسناً شريفاً ، وقومي خلفي ، فلو أنك بعثت نفرأ من أصحابك معي لرجوت أن يجيبوا دعوتك ويتبعوا أمرك . فقال له الرسول : اني أخاف عليهم أهل نجد . فقال عامر : لا تخف عليهم ، أنا لهم جار ان يعرض لهم أحد من أهل نجد . وكان عامر ، كما اسلفنا ، من سادة بني عامر . فوافق الرسول على فكرته وندب أربعين رجلاً من رجاله وعلى رأسهم المنذر بن عمرو الساعدي للذهاب الى نجد والدعوة فيها بدعوة الاسلام . وأعطى الرسول الى المنذر كتاباً ليقراه على أهل نجد ، وأمرهم بالسير لما ندبوا له . فخرجوا حتى نزلوا بئر معونة ، وهي بين أرض بني عامر وحرّة بني سليم . فلما نزلوا ، بعثوا بكتاب رسول الله (ص) الى عامر بن الطفيل ، أحد رجالات بني عامر . فلما جاءه الكتاب ، لم ينظر فيه ، ووثب على رسول الوفد الاسلامي فقتله ، ثم استصرخ قومه العامريين للخروج معه لقتل بقية رجال الوفد الاسلامي . ولكن بني عامر رفضوا طلب ابن الطفيل وذلك لأن عامر بن مالك أخبرهم بأنه أجار المسلمين ، فأبوا أن يخفروا جوار سيد من ساداتهم . ولما أبت بنو عامر على عامر بن الطفيل استصرخ عليهم قبائل بني سليم فنفروا معه وأجابوه الى طلبه ، واعتدوا على الوفد الاسلامي وقتلوه عن آخرهم ما عدا رجلين منهم هما عمرو بن أمية الضمري وكعب بن زيد . وعاد عمرو بن أمية الضمري الى المدينة ليخبر الرسول بما جرى لصحبه في بئر معونة . وفي طريقه اليها صادف رجلين من بني عامر ، كانا في زيارة للمدينة ولهما من رسول الله أمان ، فقتلها انتقاماً لأصحابه دون أن يعلم بأمان رسول الله لهما . ولما قدم ، وقص على الرسول قتله للعامريين أنبه الرسول لفعلته ، وقال له ، بئس ما صنعت ، قد كان لهما مني أمان وجوار ، لادينهما (أي علي دفع ديتهما) . وبعث الرسول فعلاً بديتهما الى قومهما ، وعاملهما على أساس أنهما حريّن مسلمين .

والذي يثير الانتباه في أمر العامريين القتيلين ان الرسول أرسل بديتهما الى أهلها لأن لهما أماناً منه ، في حين انه لم يطالب بدية ثمانية وثلاثين قتيلاً من صحبه كان لهم أيضاً أمان من سيد عامري . ولعل الرسول أراد من ذلك أن يظهر للقبائل المختلفة احترامه لقضية الجوار والعقد وتمسكه به حتى ولو لم يتمسك بهما خصومه . ويوضح لنا هذا الحديث الذي توردته لنا المصادر عن وفد الرسول الى بني عامر ، انه في هذه المرحلة من مراحل العمل الدؤوب الذي كان يقوم به الرسوم الكريم من أجل نشر الاسلام واقامة دولته ، كان يعتمد أسلوب استقبال الوفود وبعثها الى الجهات المختلفة أساساً في تحركه على الصعيد العربي ، ويولي اهتماماً كبيراً ويقدم له من الضمانات والمبادئ الكريمة التي كانت تسود مجتمع الجزيرة من وفاء بالعهد واحترام للجوار واعتماد الحوار القائم على الاقناع أسلوباً للوصول الى التفاهم . حتى انه حين عومل وفده معاملة تخلو من هذه المبادئ فتعرض افراده للقتل ، لم يشأ أن

يقابل الاساءة بالاساءة ، ودفع ديتي القتيلين العامريين لانهما قتلا ولهما امان منه ، رغم ان قاتلهما لم يكن يعرف بهذا الامان ، وقتلهما ثارا لإخوانه الذين كانوا ضحية غدر ولؤم يتنافيان مع كل أعراف الجوار واستقبال الوفود .

وتكرر حادث بئر معونة في مناسبة أخرى هي يوم الرجيع ، حين تعرض وفد اسلامي آخر أرسله الرسول الى قبائل عضل والقارة للدعوة للاسلام لغدر رجال من هاتين القبيلتين . ولم يفت هذا الحادث في عضد الرسول واستمر في اعتماد أسلوب الوفود وسيلة لمحاوة قريش والقبائل الاخرى في سبيل نشر دعوته وتحقيق أهدافه . ويتجلى هذا الأسلوب في حوارهِ مع قبائل اليهود ، ولا سيما في غزوة الخندق اذ استطاع عن طريقه ايقاع الفرقة بين يهود بني قريظة وبين قريش ، فتهدمت عناصر المؤامرة واستطاع الصف المسلم ان يربح بصموده وبسالته والتكتيك الحربي الذي اتبعه (الخندق الذي احاط به المدينة) ، ان يحول المعركة لصالحه ويربحها .

ويبدو اعتماد الرسول أسلوب الوفود أيضا في الازمة التي وقعت بينه وبين قريش حين قرر وصحبه القدوم الى مكة من أجل أداء العمرة ، أو ما يعرف عادة باسم «صلح الحديبية» . وبالرغم من اننا لا نريد لهذا البحث أن يدخل في متاهة التفاصيل التي لا علاقة لها بموضوع الوفود والسفارات ، فان الدور الذي لعبته الوفود من الجانبين : المسلم والقرشي ، كان له الفضل الاول في تحقيق هذا الصلح . فقد جزعت قريش حين عرفت بقدوم الرسول وصحبه لأداء العمرة ، وقررت منعه من تحقيق هدفه وحين نزل بالحديبية أرسلت اليه رسلا لاقتناعه بالعدول عن دخول مكة ، ولبيان الاخطار التي تنتظره اذا ما أصر على موقفه . وكان على رأس الوفد القرشي عروة بن مسعود الثقفي الذي عاد ليخبر قريشا باصرار الرسول على تنفيذ ما جاء من أجله . ورأي الرسول من ناحيته أن يفاوض قريشا وأن يرسل لها وفدا يفصح لها عن أهداف زيارته وطابعها السلمي والديني . وانتدب لهذه المهمة عثمان بن عفان لمكانته في قريش وقرباته من أبي سفيان . وفي هذا الانتقاء دليل على حنكة الرسول فقد اختار المبعوث المناسب للمهمة والجهة المناسبة . وقد طلب الرسول الكريم الى عثمان رضي الله عنه أن يقول لقريش : انا لم نأت لقتال أحد وانما جئنا زوارا لهذا البيت معظمين لحرمة ومعنا الهدى ننحره وننصرف . ووصل عثمان الى مكة فرحب به وأجاره أبان بن سعيد بن العاص ، وأبلغ الرسالة الى رؤوس قريش ، ولكنهم استمروا في عنادهم ورفضوا السماح للمسلمين بدخول مكة . ومضت على غيبة عثمان في مكة ثلاثة ايام لم يسمع المسلمون خلالها خبرا عنه ، وذاع بينهم انه قتل مع عشرة من المسلمين كان الرسول قد سمح لهم بالتوجه الى مكة لزيارة أهلهم فيها . فطلب الرسول من صحبه أن يبايعوه على محاربة قريش اخذا بثأر موافده . ورات قريش أن المسلمين يعسكرون على مقربة من أرضها وان حربهم لن تكون سهلة ولا يسيرة ، فأثرت

أن تفاوضهم ، لذا أرسلت وفدا برئاسة سهيل بن عمرو ليفاوض الرسول وينهي الازمة دون اللجوء الى قتال . فكان طلب الرسول الاول عودة عثمان وصحبه من المسلمين ، فوافق سهيل وأرسل من قبله رسولا الى قريش يطلب منها اطلاق سراح عثمان ومن معه من المسلمين ، فوافقت قريش على ذلك فورا وأرسلت عثمان وصحبه الى الرسول . وعاد سهيل الى مكة ليستطلع رأي قومه في الشروط التي يطلبونها من الرسول . فأشار عليه أهل الرأي منهم بالصلح على أن يرجع الرسول عنهم عامه هذا ويعود في العام المقبل . وعاد سهيل الى الرسول بعرض قريش واتفق الطرفان على صلح تنص بنوده على بعض الشروط التي لا نرى ضرورة لذكرها في هذا المقام . ولكن من المهم أن نذكر أن اسلوب التفاوض عن طريق الوفود قد اعتمد بشكل رسمي من قبل الطرفين المتخاصمين في هذه الفترة من تاريخ الامة العربية ، واعتبر وسيلة ناجعة لجعل الاطراف المختلفة تصل الى حلول لبعض المشاكل التي تطرح نفسها والتي اذا لم يعتمد التفاوض اسلوبا لحلها لكانت الحرب هي البديل الوحيد .

ولا بد من الاشارة هنا الى أن الرسل والوفود كانت في هذه الفترة لا تقتصر على المجالات الداخلية فقط ، بل كانت وفود الرسول تسافر الى الخارج ولا سيما الى الحبشة ، فقد أرسل صلوات الله عليه عمرو بن أمية الضمري الى النجاشي يطلب اليه أن يعيد من قبله من المسلمين فأرسلهم النجاشي على مركبين ، وكانوا ستة عشر رجلا ومعهم من بقي من نسائهم وأولادهم .

وفي ختام هذه الفقرة من بحثنا لا بد من الاشارة الى ما تعارف المؤرخون على تسميته بـ « عام الوفود » ، وهو العام التاسع للهجرة الذي تقاطر فيه على الرسول رجالات القبائل العربية مبايعين على الاسلام والطاعة ، بعد أن فتحت مكة ودخلت قريش في الاسلام وثبت لسائر العرب أن المسلمين قوة سياسية وحربية ، الى جانب العقيدة الجديدة التي تنزلت على قلب النبي العظيم ، وكان وفد ثقيف أسبق الوفود في القدوم على الرسول وكان لقدمه وقبوله الاسلام وشروط الرسول عليه مغزى خاص ، إذ أنه باسلام ثقيف غدت الحجاز كلها تدين بالدين الجديد . كما أخذت القبائل الاخرى التي كانت لا تزال على الشرك تحذو حذو ثقيف وترسل بعوثا منها الى المدينة لتعلن انضواءها تحت راية الاسلام ومبايعة رسول الله . ولن نذكر أسماء هذه الوفود ورجالاتها فهي كثيرة وتشمل معظم القبائل العربية ، ولكن لن يفتونا أن نشير الى أنه كان بين هذه الوفود وفد أرسله ملوك حمير يعلم الرسول الكريم باسلامهم ، فقبل الرسول اسلامهم وأرسل اليهم كتابا يعلمهم فيه فرائض الاسلام وما يترتب عليهم من أخماس وصدقات واجبات حيال رعاياهم من أهل الذمة . كما أرسل اليهم وفدا مسلما برئاسة معاذ بن جبل ليعلمهم الاسلام ويفقههم بالدين . وكان فروة بن عمرو الجذامي ، عامل الروم على من يليهم من العرب ، من بين الامراء الذين

أرسلوا الى الرسول من يعلمه باسلامهم . وكان منزل فروة معان وما حولها من أرض الشام . وقد أرسل مع رسله بغلة بيضاء كهدية للنبي . فقبل النبي عليه السلام اسلام فروة وهديته . ولما بلغ الروم اسلام عاملهم غضبوا لذلك وطلبوه حتى أخذوه فحبسوه ثم ضربوا عنقه على ماء بفلسطين يقال له عفراء .

وبعد ، فيظل الحديث عن الوفود والسفارات في عصر الرسول (ص) ناقصاً اذا لم نتعرض الى أهم عنصر فيه وهو موضوع كتب الرسول الى الملوك والامراء يدعوهم الى الاسلام .

فمن المعلوم أن في الآية الكريمة التي تخاطب الرسول قائلة : « وما أرسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ، وفي قوله عز وجل : « ان هو الا ذكر للعالمين » ، دعوة صريحة الى عالمية الدعوة ، وتوجيه واضح للرسول الكريم لينقل الدعوة من اطار الجزيرة العربية الضيق الى آفاق الارض الرحبة حيث يجب أن تخفق راية الاسلام ، كما خفقت في سماء الجزيرة ، وحيث يجب أن تعلو كلمة الحق فينتقل الناس كافة من الضلالة الى الهدى . ونحن في بحثنا عن « الوفود والسفارات في عصر الرسول » لا بد أن نتوقف عند الجهود التي بذلها صلوات الله عليه في سبيل تحقيق هدف عالمية الدعوة عن طريق ما أرسله من وفود وسفارات الى ملوك وأمرأ الارض يدعوهم بدعوة الاسلام ، ويحضهم على ترك ما هم فيه من ضلالة وكفر . وقد أوجبت علينا طبيعة المعلومات التي ترد في بعض المصادر الأولية والحديثة حول هذا الموضوع أن نسلک في معالجته سبيل نقد الخبر وعرضه على ما يفرضه منهج البحث التاريخي من معايير كي نستخلص الصورة الحقيقية لما جرى . لان في بعض ما بين أيدينا من أخبار شيئاً من عدم دقة يضطر معه الباحث المدقق الى اعمال النظرة الموضوعية المتفحصة لاستبعاد ما لا يمكن قبوله وتقويم ما يمكن أن يكون قد وقع من خطأ . ولا بد لي من أن استمیح القارئ العذر لما أقحمه فيه من دوامة نقد الروايات والأخبار ، ولكنها مناسبة أردتها ألا تفوت دون أن يعطى هذا الموضوع الهام ما هو أهل له من عناية وتمحيص .

تذكر المصادر (كابن سعد وابن هشام والطبري وابن حبيب وغيرهم) ان الرسول بعد انصرافه من الحديبية أرسل ستة من أصحابه الى ملوك الدول المجاورة وأمرائها يدعوهم بدعوة الاسلام . وقد حمل هؤلاء الرجال كتباً ممهورة بخاتم الرسول . وعادوا بأجوبة عليها ، بعضها فيه قبول لهذه الدعوة وبعضها فيه رفض لها . ويفرد ابن سعد فصلاً خاصاً في « طبقاته » لهذا الامر يقول فيه : « .. قالوا : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما رجع من الحديبية في ذي الحجة سنة ست ، أرسل الرسل الى الملوك يدعوهم الى الاسلام ، وكتب اليهم كتباً ، فقبل يا رسول الله ، ان الملوك

لا یقرؤون کتابا الا مختوما ، فاتخذ رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يومئذ خاتما من فضة ، فسه منه ، نقشه ثلاثة أسطر : محمد رسول الله ، وختم به الكتب ، فخرج ستة نفر منهم في يوم واحد ، وذلك في المحرم سنة سبع ، وأصبح كل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذين بعثه اليهم . فكان أول رسول بعثه صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضمري الى النجاشي وكتب اليه كتابين يدعو به أحدهما الى الاسلام ، ويتلو عليه القرآن ، فأخذ (أي النجاشي) كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوضعه على عينيه ، ونزل من سريره فجلس على الارض تواضعا ، ثم أسلم وشهد شهادة الحق ، وقال : لو كنت أستطيع أن آتیه لأتیه ، وكتب الى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، باجابه وتصديقه واسلامه على يدي جعفر بن ابي طالب . وفي الكتاب الآخر يأمره أن يزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب وكانت قد هاجرت الى أرض الحبشة مع زوجها عبيد الله بن جحش الأسدي فتنصر هناك ومات ، وأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في الكتاب أن يبعث اليه بمن قبله من أصحابه ففعل وزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان وأصدق عنه أربعمئة دينار ، وأمر بجهاز المسلمين وما يصلحهم ، وحملهم في سفينتين مع عمرو بن أمية الضمري . . وبعث رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، دحية بن خليفة الكلبي وهو أحد الستة ، الى قيصر يدعو الى الاسلام وكتب معه كتابا وأمره أن يدفعه الى عظيم بصرى ليدفعه الى قيصر ، فدفعه الى عظيم بصرى وهو يومئذ بجمص ، وقيصر يومئذ ماش في نذر كان عليه : إن ظهرت الروم على فارس أن يمشي حافيا من قسطنطينية الى ايلياء ، فقرأ الكتاب وأذن لعظماء الروم في دسكرة له بجمص فقال : يا معشر الروم ، هل لكم في الفلاح والرشد ، وأن يثبت لكم ملككم وتتبعون ما قال عيسى بن مريم ؟ قال الروم : وما ذاك أيها الملك؟ قال : تتبعون هذا النبي العربي ، قال : فحاصوا حيصة حمر الوحش وتناجزوا ورفعوا الصليب ، فلما رأى هرقل ذلك منهم يئس من اسلامهم وخافهم على نفسه ، وملكه ، فسكنهم ثم قال : انما قلت لكم ما قلت اختبركم لأنظر كيف صلابتكم من دينكم الذي أحب ، فسجدوا له . قالوا : وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عبد الله بن حذافة السهمي ، وهو أحد الستة ، الى كسرى يدعو الى الاسلام ، وكتب معه كتابا ، قال عبد الله : فدفعت اليه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقريء عليه ، ثم أخذه فمزقه ، فلما بلغ ذلك رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : اللهم مزق ملكه ، وكتب كسرى الى بازان عامله على اليمن أن ابعث من عندك رجلين جلدين الى هذا الرجل الذي بالحجاز فليأتاني بخبره (وأرسل باذان الرجلين وقابلا الرسول فتنبأ لهما بمقتل كسرى من قبل ابنه شيرويه) فرجعا الى باذان فاسلم هو والابناء الذين باليمن . قالوا : وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حاطب بن ابي بلتعمة اللخمي ، وهو أحد الستة ، الى المقوقس صاحب الاسكندرية عظيم القبط يدعو الى الاسلام وكتب معه كتابا ، فأوصل اليه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقراه وقال له

خيرا ... وكتب الى النبي صلى الله عليه وسلم : لقد علمت أن نبيا قد بقي وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك وبعثت اليك بجارين لهما مكان في القبط عظيم ، وقد أهديت لك كسوة وبغلة تركبها ، ولم يزد على هذا ولم يسلم فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم هديته ، وأخذ الجارين مارية أم ابراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأختها سيرين ، وبغلة بيضاء لم يكن في العرب يومئذ غيرها وهي دلدل ... قالوا : وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، شجاع بن وهب الاسدي ، وهو أحد الستة الى الحارث بن أبي شمر الفسائي يدعو الى الاسلام ، وكتب معه كتابا ، قال شجاع : فأتيت اليه ، وهو بغوطة دمشق ، وهو مشغول بتهيئة الانزال والالطاف لقيصر ، وهو جاء من حمص الى ايلياء ... فدفعت اليه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقرأه ، ثم رمى به وقال : من ينتزع مني ملكي ؟ أنا سائر اليه ولو كان باليمن جثته ، علي بالناس ، فلم يزل يفرض حتى قام ، وأمر بالخيول تنعل ، ثم قال : أخبر صاحبك ما ترى . وكتب الى قيصر يخبره خبري وما عزم عليه . فكتب اليه قيصر : ألا تسير اليه واله عنه ووافني بإيلياء ، فلما جاءه جواب كتابه ، دعاني فقال : متى تريد أن تخرج الى صاحبك (فقلت : غدا ، فأمر لي بمائة مثقال ذهب .. فقدمت على النبي صلى الله عليه وسلم ، فأخبرته ، فقال : باد ملكه ! ومات الحارث بن أبي شمر عام الفتح ... وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سليط بن عمرو العامري ، وهو أحد الستة ، الى هوزة بن علي الحنفي يدعو الى الاسلام وكتب معه كتابا ، فقدم عليه وأنزله وجباه ، وقرأ كتاب النبي ، صلى الله عليه وسلم ، (وطلب هوزة في كتاب أرسله الى النبي أن يشاركه في الامر حتى يؤمن به ، ولما وصل كتاب هوزة الى النبي قال تعليقا على هذا الطلب) : لو سألني سيابة من الارض ما فعلت ، باد وباد ما في يديه ! فلما انصرف من عام الفتح جاءه جبريل فأخبره أنه قد مات .

هذا هو نص ابن سعد ، وقد أوردناه كاملا لأنه في رأينا ، يحتاج الى وقفة نناقش فيها ما يورد من معلومات لا يستقيم بعضها أمام النقد التاريخي والمقارنة مع المصادر الاخرى .

ان اول ما يستدعي الانتباه في نص ابن سعد هو التاريخ الذي يحدده لانطلاق رسل الرسول الى الملوك والامراء ، فهذا التاريخ عنده هو بعد صلح الحديبية ، أو بشكل أدق هو المحرم من سنة سبع للهجرة حين خرج ستة منهم في يوم واحد ، على حد زعم ابن سعد . ان نظرة بسيطة الى وضع الرسول والجماعة الاسلامية بعد صلح الحديبية تجعلنا ندرك بما لا يقبل الشك أنه كان على الاسلام والمسلمين في هذا الوقت المبكر أن يقفوا في وجه الاخطار والتحديات التي تمثلها قريش وغيرها من قبائل الحجاز ونجد التي لم تكن قد انضوت تحت لواء الاسلام بعد ، والتي كانت لا تزال على جانب

من القوة لا يستطيع المسلمون الاستهانة به . واذا أضفنا الى هذا أن مدن الحجاز الكبرى نفسها كمكة والطائف كانت لا تزال تناصب الرسول العداء ولم تخضع لسلطانه، لوجدنا أن المنطق يفترض ألا يتطلع الرسول الى نشر دين الله خارج الجزيرة وأن يعرضه على امبراطوريات عظمى كفارس وبيزنطة ، في حين أن أقرب مدن الحجاز اليه كانت لا تزال على الشرك وتسعى بمختلف الوسائل والسبل ، بما ذلك الحرب ، للقضاء عليه وعلى دينه .

واذا تركنا ما يمليه المنطق جانبا ، وتمسكنا بحرفية النصوص وما جاء في مصادر الاخبار المختلفة ، لوجدنا أن نص ابن سعد لا يستقيم أمام الفحص الدقيق الناقد لما جاء من أخبار . ولناخذ أولا ما يذكره هذا المؤلف عن بعث الرسول لدحية بن خليفة الكلبي الى أمير بصرى ومعه كتاب الى قيصر ، ان بعثة دحية هذه سابقة على صلح الحديبية دونما شك ، لا تالية لها ، كما يدعي ابن سعد ، وقد حدثت بشكل أدق في السنة السادسة للهجرة ، على ما يذكره هو نفسه ، لا أي شخص آخر فقد جاء في موضع لاحق من « طبقاته » أن دحية تعرض ، وهو في طريق عودته الى المدينة من عند قيصر الى هجوم شنته عليه جماعة من جذام وسلبته ما كان يحمل من هدايا وكسوة حمله اياها قيصر . وقد أخبر دحية الرسول بما جرى له ، فجهز سرية مؤلفة من خمسمائة رجل على رأسهم زيد بن حارثة وأرسلهم الى حسمى لتأديب الجذاميين وذلك في جمادى الآخرة من سنة ست للهجرة . وقد قامت سرية زيد بهذه المهمة خير قيام وعادت بأسلاب كبيرة وأسرى لا يقلون عن المائة (انظر ابن سعد ط . بيروت ، ج ٢ ، ص ٨٨) . وهكذا ، فان دحية الذي يذكر ابن سعد انه كان أحد الستة الذين انطلقوا بعد الحديبية حاملين كتب الرسول خرج قبل الحديبية التي لم تحدث حتى ذي القعدة من السنة نفسها ، لا بعدها كما يدعي .

واذا تركنا أمر دحية جانبا، وانتقلنا الى ما يذكره النص عن الرسول الذي أرسله النبي الى المقوقس وعودة الرسول الى المدينة ومعه هدايا المقوقس التي كان من بينها مارية وسيرين ، لوجدنا أن الامر لا يستقيم أيضا والتاريخ الذي حدده ابن سعد لارساله ، وهو ما بعد الحديبية ، أو المحرم من سنة سبع . إذ أن ابن اسحق يذكر أن الرسول أعطى سيرين الى حسان بن ثابت كترضية له وتعويض عن الضربة التي ضربه اياها صفوان بن العطل ابان الازمة التي تعرف باسم « حديث الافك » ومعروف أن حسان كان من الذين هجوا صفوان وتقولوا عليه الاقاويل ، فثارت نائرة صفوان لهذا وضرب حسان ضربة كادت تميته . وقد عوض الرسول على حسان وأهداه سيرين كترضية له عما أصابه . وحديث الافك هذا كان أحد نتائج غزوة بن المصطلق التي حدثت في شعبان من سنة ست للهجرة . وما دام الرسول قد أهدى سيرين لحسان في شعبان من السنة السادسة أو الشهر التالي له ، فلا يمكن أن يستقيم

التاريخ الذي يحدده ابن سعد (المحرم من سنة سبع) كموعداً لانطلاق حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس وعودته بهداياه التي كانت سيرين أحداها .

وإذا كان نص ابن سعد خاطئاً بالنسبة للتواريخ التي يحددها كموعداً لانطلاق دحية بن خليفة الكلبي وحاطب بن أبي بلتعة مبعوثي الرسول إلى قيصر والمقوقس فإن ما يرد فيه من حديث عن بعث الرسول لشجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شمر الفسائي يستثير أعنف نوازع النقد في نفس المؤرخ . وسبب ذلك أن الأخباريين العرب غير متفقين على أسماء الملوك الفسائنة الذين حكموا بدءاً من سنة ٥٠٠ م ، ولكن قائمة نولده ، وهي المعتمدة عند أغلب الباحثين ، تجعل من أبي شمر جيلة أول ملوك الفسائنة بعد المنذر بن الحارث . وقد تلا أباً شمر هذا ابنه الحارث بن جيلة الذي حكم بين ٥٢٩ - ٥٦٩ م . والحارث بن جيلة هو الحارث بن أبي شمر نفسه ، كما يظهر من اسم أبيه ، وكما يؤكد حمزة الأصفهاني في تاريخه . فهل يعقل أن يرسل الرسول مبعوثاً ورسالة دعوة إلى الإسلام إلى ملك مات قبل ولادته بما لا يقل عن عام أو عامين ؟ ويؤيد نقدنا هذا ما يرد في بعض المصادر الأخرى من معلومات حول هذا الموضوع فالطبري ، مثلاً ، يذكر أن الرسول أرسل شجاعاً إلى المنذر بن الحارث بن أبي شمر ، لا إلى الحارث . وهذا أيضاً غير مقبول في رأينا لأن المنذر هذا حكم بين سنتي ٥٦٩ - ٥٨٢ ، أي أنه توفي والرسول لا يزال صبياً في حوالي العاشرة من عمره . وعندنا أن ما يذكره ابن حبيب من أن شجاعاً حمل رسالة الرسول إلى جيلة بن الإيهم الفسائي ، هو الاصدق والاصح ، لأن جيلة هو آخر من حكم من ملوك الفسائنة وتناسب فترة ملكه مع قيام الدعوة إلى الإسلام . وقد أسلم هو نفسه ، ثم ما لبث أن تنصر بعد حادثته المعروفة مع عمر بن الخطاب .

بعد هذه الملاحظات على ما ورد في نص ابن سعد ، لا بد لنا من أن نقرر أن إرسال الرسول لمبعوث وموفدين للملوك والأمراء داخل الجزيرة وخارجها ، هو حقيقة واقعة تؤيدها كل المصادر والقرائن والدلالات ، وتحتملها طبيعة الدعوة ، وما لها من صفة العمومية والشمول ، بحيث لا يمكن أن تقتصر الدعوة إلى هذا الدين على قوم دون قوم . على أن الذي لا بد من ملاحظته بمناسبة ما يرد حول هذا الموضوع عند ابن سعد وغيره من المؤرخين القدماء والمحدثين ، هو أن تداخل الروايات واختلاط الأحداث بسبب التواتر الشفهي ، قد أدت كلها إلى صورة مشوهة لما جرى ينقصها الضبط ويتداخل فيها حادث بحادث أو موضوع بموضوع ، لا سيما إذا كان الحادثان متقاربين من حيث الموضوع أو تشابه فيهما بعض التفاصيل . وخير مثال على هذا التداخل واختلاط الروايات يمكننا أن نورد في ما يذكره لنا ابن سعد في النص الذي نقلناه في مطلع بحثنا هذا ، عن موفد الرسول إلى نجاشي الحبشة . فقد اختلط عند ابن سعد مناسبات عدة كانت فيها بين الرسول والنجاشي مكاتبات ووفود ، فجمع في مناسبة

واحدة ثلاث مهام هي : دعوة النجاشي الى الاسلام ، وتزويجه بأم حبيبة ، والطلب الى النجاشي تجهيز من قبله من المسلمين واعادتهم مع موفده عمرو بن أمية الضمري ، وبديهي الا يطلب الرسول من النجاشي تزويجه من أم حبيبة واصداقها عنه في وقت يطلب اليه فيه اعادة من قبله من المسلمين ولكان أجل زواجه منها حتى ما بعد عودتها مع من بقي من المسلمين في الحبشة . كما ان ما يذكره من اسلام النجاشي امر غير مقطوع بصحته ولا نجد دليلا عليه في المصادر التي تدرس الموضوع بجد واهتمام .

والى جانب هؤلاء الستة الذين يذكرهم ابن سعد ، هناك موفدون آخرون تذكر المصادر اسمائهم والمهام التي اوكلت اليهم ، فمن بين موفدي الرسول، غير هؤلاء الستة يذكر ابن سعد عمرو بن العاص الذي بعثه الرسول سنة ثمان للهجرة الى جيفر وعبد ابني الجلندی وهما سيدا قبائل الازد النازلة في عمان يدعوها الى الاسلام . وقد قبلا دعوة الرسول ودفعوا لموفده الصدقة ، فوزعها بين فقرائهم . كما ارسل الرسول بعد منصرفه من الجعرانة ، العلاء بن الحضرمي الى المنذر بن ساوي العبدي سيد البحرين يدعوهم بدعوة الاسلام . فكتب المنذر الى الرسول يخبره باسلامه وتصديقه واسلام بعض من أصحابه ، وبقاء آخرين منهم على اليهودية او المجوسية . فأجابهم الرسول بأخذ الجزية ممن بقي على هذين الدينين . كما كتب الى أهل اليمن كتابا يخبرهم فيه بشرائع الاسلام وفرائض الصدقة في المواشي والاموال ويوصيهم بأصحابه ورسله خيرا . وكان رسوله اليهم معاذ بن جبل ومالك بن مرارة ، وأمرهما بجمع الصدقات والجزية . وكان مالك هذا رسول أهل اليمن الى النبي يعلمونه اسلامهم وطاعتهم ، فرداه الرسول مع معاذ الى قومه وعهد اليه مع صاحبه بأمر الصدقات والجزية ، كما أسلفنا . ولم يكن معاذ ومالك موفدي الرسول الوحيدين الى اليمن، بل هناك عدد آخر منهم الى أمراء مقاطعات اليمن المختلفة تذكرهم المصادر وتعين الجهة التي ارسلوا اليها . كما ان المصادر تتحدث عن رسله الى بعض قبائل كندة وحضرموت ولخم والازد وبني الحارث وبني فهد وبني طي وبني سعد هذيم وبني زرعة وبني اسلم من خزاعة وبني جهينة ومسيلمة الكذاب وبني غفار وصاحب هجر وأهلها وبني بكر بن وائل وبني عبد القيس وخثعم وكثير غيرها .

وهناك عدد من الكتب تذكر المصادر انه وجهها الى بعض الاساقفة النصراني وبعض الزعماء النصراني واليهود . ككتابه الى ضفاطر الاسقف وكتبه الى بني جنبه وهم جماعة من اليهود كانت تقيم بمقنا (مقنا موقع قرب ايلة) ، وكتبه الى يحنة بن رؤبة وسروات أهل ايلة ، والاكيدر زعيم دومة الجندل النصراني ، وبني غاديا اليهود، ويهود جربا وأذرح وغيرها . وتتضمن هذه الكتب اعترافا من الرسول لهم بحكم ما تحت أيديهم من أراض وبلاد مقابل اعلان خضوعهم له ودفع ما يترتب عليهم من جزية او زكاة (لمن اسلم) .

والى جانب هذا الفريق الذي باداه الرسول بالكتابة والدعوة الى الاسلام عن طريق الوفود والمبعوثين ، هناك فئة من الملوك والافراد اخذت هي بزمam المبادرة ، وكاتبت الرسول معلنة اسلامها وخضوعها قبل أن يبادئها الرسول بذلك . ومن بين هذه الفئة الثانية فروة بن عمرو الجذامي الذي كان عامل الروم على عمان من أرض البلقاء ، أو على معان ، وقد بلغت فروة أخبار الرسول ومعلومات عن الدين الذي يدعو اليه ، فأسلم وكتب اليه يخبره بذلك ، وبعث اليه بهدايا كثيرة ، كان من بينها بغلة بيضاء وفرس وحمار وأثواب لين وقباء سندس مخوص بالذهب . وقد بلغ ملك الروم اسلام فورة ، فطلب اليه العودة عن الاسلام ، فحبسه وقتله وصلبه .

وهكذا فقد استعمل الرسول أسلوب الوفود والسفارات في اخريات حياته ، واعتمده وسيلة لتحقيق نشر الدعوة خارج حدود الجزيرة العربية وداخلها ، واعتمده وسيلة لتحقيق نشر الدعوة خارج حدود الجزيرة العربية وداخلها ، على أن السبيل السلمي ، لم يكن ناجحا دوما ، واضطر الرسول في سبيل تحقيق شعار عمومية الدعوة أن يلجأ للقتال ، فكان أن أمر بتجهيز جيش أسامة بن زيد لغزو أطراف الشام الجنوبية، ولكن بعث زيد لن يتاح له أن ينطلق الا في خلافة أبي بكر ، كما هو معلوم ، اذ أن المنية عاجلته صلوات الله عليه ، وانتقل الى الرفيق الاعلى ليسلم الراية الى أصحابه البررة، الذين حملوا الامانة بكل صدق واخلاص .

وفد يكون لنا مع الوفود والسفارات في الفترات التالية وقفة أخرى ان شاء الله .

